دفع التعارض المتوهم في مسألة مغفرة الله تعالى للمشركين والكافرين والمرتدين وعدمها: دراسة موضوعية وصفية

(Refuting the Alleged Contradiction in the Argument on Whether Allah Forgives Disbelievers, Polytheists and Apostates or Not: A Subject-Wise and Descriptive Study)

Murat Yilmaz

Arabic Language Instructor, TUS Clases, Argentina / Doctoral Candidate, Tafseer & Qur'ānic Sciences, Faculty of Usuluddin (Islamic Studies), International Islamic University, Islamabad, Pakistan

Abstract

Apparent meanings of some *Qur'ānic* verses cause the delusion that the Quran contains contradictory information while there is no any contradiction in it. This delusion appears mainly because of lack of knowledge about the sciences needed to understand what these verses mean. For example, some verses seemed to mean that Allah never forgive disbelievers, polytheists, and apostates no matter how they ask His forgiveness during their lives in spite of the fact that some other verses emphasize that Allah may forgive all of them. Therefore, a beginner-level person with little knowledge of Arabic and *Qur'ānic* sciences might be under the delusion that these verses contain some contradictions. Commentaries of *tafsīr* scholars on these verses based on major principles of a *Qur'anic* science called *mūhim-ul-ikhtilāfi wa al-tanāqudh* refuted this alleged contradiction between these verses as I quoted some of them in this article.

Key Words: Contradiction, delusion, sin, disbelief, *shirk*, apostasy, repentance and forgiveness

المقدمه

الحمد لله الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ بالهدى حيث أنزل عليه: **قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ.**[1] فأمر الناس أن يتدبروه ليهديهم سواء السبيل فيتبين لهم أن القرآن المجيد: **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.**[2] إذ هو سالم من اختلاف التضادّ وتناقضٍ، أو تعَارُضٍ حقيقيّ. وأحمد الله الذي نزّل القرآن على قلب نبيّه الأمي فأسكت بلسانه الكافرين والمشركين من فصحاء العرب وبلغائهم الذين اعترفوا مظاهر إعجاز القرآن فصرفوا عن معارضته بالحروف رَغْمَ فصاحتهم وبلاغتهم. وأما بعض الجهلاء من العرب والعجم ما زالوا يثيرون الشبهات حول بعض آيات القرآن عبر التاريخ الإسلامي بأنْ «آثروا الملاكمة على المكالمة».[3] ولا شك أن دعوى الاختلاف والتناقض بين آيات القرآن من قبيل هذه الملاكمة التي تظهر عمق جهالتهم بالعلوم التي تُحتاج إليها في دفع إيهام الاختلاف والتناقض لأنه ادعاء وجود النقيصة في القرآن ولكن كتاب الله منزّه عنها كما قال تعالى: **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا.**[4] وصلّى الله على سيدنا محمد ﷺ وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا.

أهمية الموضوع

بعض آيات القرآن يظهر للوهلة الأولى أنها متناقضة كأن تخبر آية عن شيء بيد أن ظاهر آية أخرى يخبر عن خلاف ذلك فيتوهَّم بعض من لم يتخصّص بالعلوم الشرعية التناقضَ في القرآن وليس الأمر كذلك. إن هؤلاء المتوهمين يقفون أمام خطر عظيم يهدّد إيمانهم بكتاب الله ويحتاجون إلى إزالة هذا التوهّم. ظواهر بعض الآيات توهم أن الله وعد ألَّا يغفر للكافرين والمشركين والمرتدين مَهْما تابوا إلى الله في حياتهم وهذا يجعل بعض المسلمين يبتعدون عن غير المسلمين أشد الابتعاد فيُنْتِج ذلك ضرَرًا بدعوتهم إلى الإسلام.

أسباب اختيار الموضوع

---

[1] الزمر 39: 28.

[2] فصّلت 41: 42.

[3] محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، التحقيق: فواز أحمد زمرلي (بيروت: دار الكتب العربي، ط1، 1425 هـ-1995 م)، 2: 323.

[4] النساء 4: 82.

أعتقد أن "موهم الاختلاف والتناقض" أهَمُّ فرع "مشكل القرآن" من علوم القرآن التي هي أشرف العلوم. ومن أجل ذلك اشتقت إلى الزيادة علمًا في هذا العلم باختياري موضوعًا يتعلق به. يجب على المسلمين أن يرفعوا توهُّم المتوهمين ويرُدُّوا على معترضي القرآن بالطعن ويدفعوا الشبهات التي أثاروها حول آيات القرآن لأنهم يدَّعون في مؤلفاتهم ومواقع الإنترنت الكثيرة أن في القرآن كثيرًا من الآيات المتناقضة فهو ليس بكلام الله-وعلى حسب ما ذكرته، أن موضوع "دعوى التعارض بين بعض الآيات" موضوع عصري فحاجة كل من يقرأ القرآن ماسةٌ إلى دراسة أسباب موهم الاختلاف والتناقض طرق دفع هذا الإيهام عن الآيات القرآنية.شاهدْتُ مَنْ يدرّس تلاميذه أن الشرك هو الذنب الوحيد الذي لن يغفره الله أبدًا في الدنيا ولا في الآخرة بناء على ما كُتِب في بعض كتب إسلاميات[5] فأثبت ذلك كيف يخطئ مَنْ قلّت معرفته بموهم التناقض.

الدراسات السابقة

لم أطلع على دراسة ولا كتاب انفرد بتبيينِ وتفصيلِ دفع التعارض المتوهم في مسألة مغفرة الله تعالى للمشركين والكافرين والمرتدين وعدمها. ومع ذلك يوجَد بعضُ الدراسات التي تتعلق بالجانب النظري أي: موهم الاختلاف والتناقض من بحثي كما ذكرت ما حصلت عليها في التالي:

1-موهم الاختلاف والتناقض في القرآن، ياسر أحمد علي الشمالي، جامعة أم القرى، كلية الدعوة الأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، رسالة عقدت لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة، إشراف الدكتور: مسْعَد عَبد المعطي الحفني النبراوي، 1408 هـ.2-موهم الاختلاف في القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور محمد السيد راضي جبريل، المجلة العلمية لكلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا -

---

[5] ولا تبيّن هذه الكتب تفاصيل الموضوع بعد إلقاء هذا الفكر في معنى الآية: 48 من سورة النساء مِثْل ما في التالي:

"Allah (سبحانه وتعالى) condemns associating partners with Him and declares it as the only unpardonable sin." (Hammad Ibn Nishat, Cambridge O level Islamiyat Textbook for Paper 2, Bookmark Publishing, Third Edition, page: 178). Refer also to the footnote: 110 of this article.

معناه: "**يلعن الله (سبحانه وتعالى) الشرك بالله ويُعْلِن أنه الذنبُ الوحيدُ الذي لا يعفره**" فمثل هذه المعلومات بدون أيّ شرح يجعل بعض التلاميذ يخطؤون في فهم موضوع الكبائر في الإسلام وخاصّة الشرك منها. راجع أيضًا إلى الهامش: 110 من هذه المقالة.

العدد الأول. 3ـ موهم التناقض في القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور عماد الراعوش، دراسة نظرية ونماذج تطبيقية.4ـ آيات العقيدة التي قد يوهم ظاهرها التعارض في صفات الله تعالى، جمعا ودراسة، حياة حمد المحمادي، مجلة قسم العقيدة من جامعة أم القرى.5ـ دعوى التعارض بين نصوص القرآن الكريم، سامي عطا حسن، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد 24(2)، 2010، ص 587-620ـ 6ـ دفع إيهام التعارض عن الآيات الواردة في الإيمان بالرسل والقدر -جمع ودراسة، خالد علي بن عبد الله بن عمر الدميجي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، إشراف: الدكتور أحمد بن ناصر الحمد، 1427 هـ.

خطة البحث

إن الخطة تتكون من المقدمة والتمهيد وفصلين كما يلي: **الفصل الأول**: علم مُوهِم الاختلاف والتّناقُض في القرآن؛ **الفصل الثاني**: هل يقبل الله توبة المشركين والكافرين الظالمين، والمرتدين في الدنيا أم لا؟ وعدة مباحث فيهما والخاتمة.

التمهيد

يشتمل التمهيدُ التعريفَ الموجزَ بِـ"مشكل القرآن" وعلاقته بموهم الاختلاف والتناقض في القرآن.

الأول: التعريف الموجز بِـ"مشكل القرآن": إنه نوع من علوم القرآن، و"الْمُشْكِل" اسم الفاعل مِن "أَشْكَلَ"، وهو من باب "الْإِفْعَال"، فهو مشتقٌّ من "الشَّكْل" أي: الشِّبْه والْمِثْل، «وَأَشْكَلَ الْأَمْرُ: اِلْتَبَسَ»[6] أي: اشتبه واختلط من أجل عدم الوضوح و«المُشْكِل والمُشْكِلَة ج مَشَاكِل ومُشْكِلات: الأمر الصعب أو الملتبس.»[7] وفي الاصطلاح، «المرادُ بالْمُشْكل ما غَمُضَ معناه وأشْكَلَ فهْمُه من الآيات، وسُمِّيَ بذلك لأنَّهُ دَخَلَ شَكْلَ غيرِه فأشْبَهَهُ وشَاكَله»[8]. يعني: أن مشكل القرآن فيما يُفهَم من القرآن صعْبًا من أجل عدة أسباب بحيث التبست معاني بعض الآيات على بعض الناس لأن المراد منها لا يُفهَم إلا بالتدبُّر الدقيق والتأمل الكامل.

---

[6] ابن منظور عبد الله محمد بن المكرّم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري، لسان العرب، تحقيق: عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي (القاهرة: دار المعارف، 1401 هـ - 1981 م)، 4: 2310.

[7] الأب لويس معلوف اليسوعي، المنجد في اللغة والأدب والعلوم (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ط19)، 711، مادة "لبس". وانظر: نفس المصدر، 398، مادة "شكل".

[8] أحمد بن محمد بن إبراهيم البربري، جهود الشيخ ابن عثيمين وآراءه في التفسير وعلوم القرآن (الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1426 هـ - 2005 م)، 270.

الثاني: العلاقة بين مشكل القرآن وموهم الاختلاف والتناقض في القرآن: قال عز الدين: «بعض آيات القرآن تبدو مشكلة من ناحية علمية أو عقائدية أو لغوية أو بلاغية أو غيرها من نواحي العلم والمعرفة، وهي ما تعرف بمشكل القرآن.»[9] ولذا، أن لمشكل القرآن فروعًا وأن فرْعًا منها يُسمَّى "موهم الاختلاف والتناقض في القرآن". إن مشكل القرآن أعمُّ من مُوهِمِ التعارُضِ، «فإذا أُطْلِقَ الْمُشْكِل دَخَلَ فيه مُوهِمُ التعارُضِ، ولا عكْسَ فالتعارُضُ أَخَصُّ ولِذا فكُلُّ مُتَعارضٍ مُشْكِلٌ وليس كلُّ مُشْكِلٍ مُتعارض.»[10] ولذا، كلّما قُلت في هذه المقالة: "فيه إشكال" أو "استشكلت الآية" أو "هذا مشكل"، إنما عَنيتُ بها "التعارض المتوهّم" أي: "توهُّم الاختلاف والتناقض".

الفصل الأول: علم مُوهِم الاختلاف والتّناقُض في القرآن

"المُوهِمُ" في اللغة العربية "مُفْعِلٌ" وهو اسم فاعلِ "أَوْهَم" من باب "الْإِفْعَال"، وهو مشتقٌّ من الْوَهْم وهو «ما يقع في الذِّهن من الخاطر»[11]. ومعنى الفعل: أَوْهَمَ يُوهِمُ إِيهَامًا: وَقَعَ في الوَهْمِ، ووَهْمُ الشيءِ: تمثُّلُه وتخيُّلُه وتصوُّرُهُ[12]. و"التَّوَهُّم" مشتقٌّ من "الْوَهْم" مصدرَ: "تَوَهَّمَ" من باب "التَّفَعُّل" فيفيد نفس المعنى كما قاله ابن منظور: «وتَوَهَّمَ الشَّيْءَ: تَخَيَّلَهُ وتَمَثَّلَهُ، كانَ في الوُجُودِ أَوْ لَمْ يَكُنْ.»[13] وأما المُرَاد بـ"موهم الاختلاف والتناقض" هي الآيات القرآنية التي توهم ظواهرها الاختلاف والتناقض مع الآيات الأخرى أي: أن في القرآن آيات تبدو للوهلة الأولى أن بينها اختلافًا وتناقُضًا وليست الحقيقة كذلك. وإنما يتوهّم بعض من يقرأ هذه الآيات للوهلة الأولى أن آية تمنع ما تدل عليه آية أخرى كأَنْ يخبر ظاهر آية عن وجود شيء ويذكر ظاهر آية أخرى عدم وجوده. قد عرّف هذا العلم خالدُ بنُ عثمان بهذا التعبير: «المُرَاد بـ"موهم الاختلاف والتضارب": هي النصوص التي يظن الناظر فيها لأول وهلة أنها متخالفة أو متضاربة، كأن يرد نفي شيء في أحد المواضع، ويقع إثباته في موضع آخر. أو يُخبر عن شيء

---

[9] عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، فوائد في مشكل القرآن (جدة: دار الشروق، ط2، 1982 م)، 14.

[10] البربري، جهود الشيخ ابن عثيمين، 270.

[11] إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425 هـ - 2004 م)، 1060؛ جَمْعُ الوَهْم أَوْهَامٌ وهو يدل على الغلط والسهو وخَطَرَاتِ القَلْبِ. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، 6: 4933، 4934، مادة "وَهْم").

[12] انظر: الأستاذ أحمد العايد، المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية ومتعلميها (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، طبعة لاروس، 1989 م)، 1337؛ لويس معلوف، المنجد في اللغة، 921.

[13] ابن منظور، لسان العرب، 6: 4934، مادة "وهم".

بخبر في أحد المواضع، ويُخبر عنه في موضع آخر بخبر آخر بحيث يصعب على من قل فهمه الجمع بينهما، فيتوهم وقوع اضطراب في النصوص بسبب ذلك. والحاصل: أن كل ما أوهم التعارض بين الآيات فهو من موهِم الاختلاف والتضارب.»[14] وعرَّفه خالد عبد الرحمن العك: «معرفة موهم الاختلاف: إن موهم الاختلاف في آيات الكتاب الحكيم: هو ما يوهم التعارض بين آياته، وكلام الله جلّ جلاله منزه عن الاختلاف؛ كما قال سبحانه: **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**. [النساء: 82]، ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم الاختلاف وليس به»[15].لا يمكن أن يقع التناقض في أحكام القرآن وأخباره كذلك، فمثلا: لا يمكن أن تأتي آية تقول "آتوا الزكاة" وتأتي آية أخرى تقول: "لا تؤتوا الزكاة" أو تأتي آية تخبر عن أمر أنه فرْضٌ وتأتي آية أخرى تقول إن هذا الأمر "حرام" في نفس الوقت، أو تأتي آية تخبر عن حادثة حدثت وتأتي آية أخرى تخبر عن عكس ذلك أنها لم تحدث.

لقد أثبتت الروايات أن علم موهم الاختلاف والتناقض شرع أن يتشكل في عهد نزول القرآن من أجل أهميته لحفظ إيمان المؤمنين بالقرآن ولصالح الدعوة الإسلامية أيضًا. ولِذا، أرشد رسولُ الله ﷺ إلى بعض مسالك دفع إيهام التعارض عن بعض الآيات كلّما سأله المسلمون أو غير المسلمين عن المعاني المرادة منها[16]. واهتمّ بقيام هذه الواجبة بعضُ علماء الصحابة[17] والتابعين[18] والعلماء

---

[14] خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعًا ودراسةً، دار ابن عفَّان، 2: 696. ومثل ذلك عبَّر عنه الزركشي كما يلي: «معرفة موهم المختلف وهو ما يوهم التعارضَ بين آياتِه» الزركشي، البرهان، 2: 45.

[15] خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده (بيروت: دار النفائس، ط2، 1986 م)، 195، 196. وانظر: الزركشي، البرهان، 2: 45.

[16] انظر: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم (الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1419 هـ – 1999 م)، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، رقم الحديث: 2135؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي (القاهرة: هجر للطباعة، ط1، 1422 هـ)، 18: 572، 573. وانظر: أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شُعَيْب الأرنَؤُوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1416 هـ - 1995 م)، 4: 154، رقم الحديث: 2309؛ نفس المصدر السابق، 24: 416، رقم الحديث: 15655.

[17] انظر: البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، الجامع الصحيح وهو الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر (دار طوق النجاة، 1422 هـ)، كتاب التفسير، سورة المرسلات (روايةُ ابن عباس رضي الله عنهما في البداية).

الآخرون من المتقدمين والمتأخرين إلى عصرنا هذا بالأَجْوِبَة عما يوهم الاختلاف والتناقض فدُوّنت مؤَلفات تتعلق بمشكل القرآن وموهم الاختلاف التناقض.

المبحث الأول: المعاني المترادفة بين الكلمات التي تستعمل في موهم الاختلاف والتناقض

مفردات هذا العلم آيات قرآنية يَظُنُّ بعض من يطّلع عليها للوهلة الأولى أن فيها اختلافًا ومختلفًا وتضادًّا واضطرابًا وتضارُبًا ومُشكِلًا وتَنَاقُضًا وتَعَارُضًا وتنافيًا، وأسبابُ هذا التوهّم، وطُرُقُ دفعِه عن هذه الآيات. وكل هذه الكلمات تُستعمل في الاصطلاح في معانٍ متقاربة أو مترادفة أو مفسرةً لِـ"الاختلاف" المنهي عن القرآن فينوب بعضها عن بعضٍ في تعابير بعض العلماء[19].

ومن أجل ذلك، عرَّف بعض الباحثين والعلماء هذا الفرع من مشكل القرآن بعناوين شتّى كما يلي: "موهم الاختلاف والتناقض في القرآن"[20]، "موهم الاختلاف في القرآن الكريم"[21]، "موهم التناقض في القرآن الكريم"[22]، "الآيات المتوهّم إشكالها"[23]، "دعوى التعارض بين نصوص القرآن الكريم"[24]، «باب التناقض والاختلاف»[25]، «معرفة موهم المختلف»[26]، «معرفة موهم والاختلاف»[27]، «الموهم

---

[18] انظر: ابن أبي حاتم عبد الرحمٰن بن محمّد بن إدريس الرازي، تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تحقيق: أسعد محمد الطيب (مكة المكرمة - الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، 1417 هـ-1997 م)، 8: 2449.

[19] ولمثال هذه التعابير، انظر: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار الكتاب العربي، 1432 هـ-2011 م)، 2: 302. وكُتِبت مصادر بعض هذه التعابير في الهوامش: 14، 43، 51، 52 من هذه المقالة. وانظر: الزركشي، البرهان، 2: 45؛ علي بن سليمان العبيد، الوجيز في علوم القرآن العزيز (الرياض: دَار التَّدمُرِيَّة، ط2، 1436 هـ-2015 م)، 271.

[20] ياسر أحمد، وقد ذكرت معلومات طباعته في الدراسات السابقة.

[21] الأستاذ الدكتور محمد السيد راضي جبريل، وقد ذكرت معلومات طباعته في الدراسات السابقة.

[22] الأستاذ الدكتور عماد الراعوش، وقد ذكرت معلومات طباعته في الدراسات السابقة.

[23] الدكتور زياد بن حمد العامر، آيات العقيدة المُتَوَهَّمُ إِشكَالُها (الرياض: مكتبة دار المنهاج، ط1، 1435 هـ).

[24] سامي عطا حسن، وقد ذكرت معلومات طباعته في الدراسات السابقة.

[25] عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبَة، تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، 65.

[26] الزركشي، البرهان، 2: 45.

[27] الشيخ خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، 195.

والمختلف»[28]، «علم ما أوهم التعارض والتناقض وليس بمتناقض ولا بمتعارض»[29]، «مشكله ومُوهِمُ الاختلاف والتَّناقُض»[30]، «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»[31]، «دفع إيهام التعارض عن الآيات»[32]، «ما يظن فيه تعارض واختلاف»[33] و«موهم الاختلاف والتضارب»[34].

المبحث الثاني: أهمّ الاصطلاحات في فهم موهم الاختلاف والتناقض

المطلب الأول: الاختلاف والمختلف: الاختلاف في اللغة التّغايرُ وعدَمُ الاتِّفاق وعدَمُ التساوي[35].

المختلف هو التعارض[36] بمعنى: المتخالف والمُتناقض[37] ومثال قول مُخْتَلِف ما قاله المشركون في البعث بعد الموت حيث قالوا لا حياةَ بعد الموت ومع ذلك زعموا أنَّ الأصنامَ تشفع لهم عند الله يوم القيامة. وحاشا أن يكون قول الله مختلفًا ومتناقضًا كذلك.

أنواع الاختلاف: وقال ابن تيمية إن أنواع الاختلاف في الأصل قسمان: «**اختلاف تنوع**، و**اختلاف تضاد**. واختلاف التنوع على وجوه: منه ما يكون كل واحد من القولين، أو الفعلين حقا مشروعا،

---

[28] علي بن سليمان العبيد، الوجيز في علوم القرآن العزيز، 271.

[29] ابن عقيلة المكي، الزيادة والإحسان في علوم القرآن (الشارقة: مركز البحوث والدراسات جامعة الشارقة، ط1، 1427هـ-2006م)، 5: 195.

[30] الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية (المدينة المنورة: المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الأمانة العامة الشؤون العلمية)، 4: 1470.

[31] محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الإشراف: بكر بن عبد الله بوزيد (مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ط1، 1426 ه).

[32] خالد علي بن عبد الله بن عمر الدميجي، وقد ذكرت معلومات طباعته في الدراسات السابقة.

[33] عبد الله بن حمد المنصور، مشكل القرآن الكريم بحث حول استشكال المفسرين لآيات القرآن الكريم أسبابه وأنواعه وطرق دفعه (الدمام: دار ابن الجوزي، ط2، 1433ه)، 135.

[34] خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير، 2: 695.

[35] انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "خلف"، 1240، ومادة "شبه"، 2190.

[36] انظر: الزركشي، البرهان، 2: 45.

[37] انظر: شهاب الدين أبو الثناء محمود بن عبد الله الآلوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: ماهر حبُّوش وهيثم حازم (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1431 ه)، 26: 13.

كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة، حتى زجرهم عن الاختلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "كلاكما محسن"[38]. ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، والتشهدات، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، وتكبيرات الجنازة، إلى غير ذلك مما قد شرع جميعه. وإن كان قد يقال: إن بعض أنواعه أفضل.»[39]

«**واختلاف التضاد**: هما القولان المتنافيان بحيث لا يمكن القول بهما معاً، فإذا قيل بأحدهما لزم منه عدم القول بالآخر»[40]. وبتعبير آخر: «اختلاف التضاد وهو الاختلاف المؤدي إلى تضاد وتناقض في المعنى ولا سبيل للتوفيق»[41] وقد يوجد في القرآن اختلاف التنوع ولكن اختلاف التضاد ليس موجود في القرآن إذ هو ما نفاه الله تعالى عن القرآن في الآية: 82 من سورة النساء[42].

المطلب الثاني: التعارض: إنه بمعنى الخِلاف والمخالفة في اللغة[43]، والتعارض بين آيتين لا يكون إلا توهُّمًا لا أصل له، وإنما يوهم ظاهرهما التعارض. إن مُوهِم الاختلاف والتناقض في القرآن هو التعارض المتوهَّم في القرآن. أجمل الزركشي تعريف التعارض فقال: «تقابل الدليلين على سبيل الممانعة»[44] وعبَّر العثيمين عن وَهْم التعارض كما يلي: «التعارض في القرآن أن تتقابل الآيتان بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى مثل أن تقول إحداهما مثبتة لشيء والأخرى نافية له.»[45]

---

[38] البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، باب 54، رقم الحديث: 3476.

[39] أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق وتعليق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل (الرياض: مكتبة الرشد)، 1: 132، 133.

[40] مساعد بن سليمان الطيار، فصول في أصول التفسير، تقديم: الدكتور محمد بن صالح الفوزان (الرياض: دار النشر الدولي، 1413 هـ-1993 م)، ط1، 57. انظر: ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، 1: 134.

[41] عماد الراعوش، موهم التناقض في القرآن الكريم، 59.

[42] انظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، 40.

[43] الأستاذ أحمد العايد، المعجم العربي الأساسي، 832.

[44] بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط2، 1413 هـ-1992 م)، 6: 109.

[45] محمد صالح العثيمين، أصول في التفسير، تحقيق: قسم التحقيق بالمكتبة الإسلامية (عين شمس الشرقية: المكتبة الإسلامية، ط1، 1422 هـ - 2001 م)، 46.

أنواع التعارض قسمان: **التعارض الحقيقي** الذي لا يوجد في القرآن و**التعارض الظاهري** أي: التّوهُّم. قال السوسة: «**التعارض الحقيقي** هو التضاد التام بين حجتين متساويتين دلالة وعددًا وثبوتًا، ومتحدتين محلًّا وزمانًا»[46] إن ما نُفِي عن القرآن في تعريف التعارض هو التعارض الحقيقي. وإن توهّم التعارض الحقيقي بين الآيات القرآنية أمر نسبيٌّ حيث يستشكل من قلَّ فَهْمُه بعضَ الآيات بَيْدَ أنّ من تَفحَّص العلوم الشرعية وخاصّةً موهم التعارض، لا يتوهّمُ أيَّ تعارضٍ حقيقيٍّ بينها. وأما «**التعارض الظاهري** هو وهم يكون في ذهن الناظر ولا وجود له في الواقع»[47] ولو اتّبع قارئ القرآن منهجا صحيحًا لَعرف أن ليس ثمت أيُّ تعارض حقيقي بين آيات القرآن الحكيم الذي **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۖ**. ويمكن أن يزال وَهْمُ هذا التعارض بعدة مسالك مثل ذِكْر طريق التّوفيق بين الدليلين من خلال الجمع بينهما، أو الإشارة إلى الناسخة والمنسوخة من الآيتين أو غير ذلك بمعرفة أسباب هذا التعارض المتوهم.

المطلب الثالث: التناقض: هو في اللغة: «تقابل بين الإيجاب والسلب في حدين أو قضيتين تحتويان على عنصرين لا يجتمعان ولا يرتفعان ولا وسط بينهما»[48] وقال البرزنجي: «اختلاف القضيتين بالإيجاب والسلب، اختلافًا يلزمه أن تكون إحداهما صادقة والأخرى كاذبة لذاته.»[49] وقال ابن قدامة فيه: «كل نقيضين ينتج إثبات أحدهما نفي الآخر، ونفيه إثبات الآخر.»[50]. «والْمُنَاقَضةُ في القَولِ أَن يَتَكَلَّمَ بما يَتَناقضُ مَعْناه أي يَتَخالَفُ.»[51] يعني: إذا كان تناقضًا بين قولين، يقتضي

---

[46] عبد المجيد محمد إسماعيل السوسة، منهج التوفيق والترجيح بين مختلف الحديث وأثره في الفقه الإسلامي (دار النفائس للنشر والتوزيع)، 87.

[47] السوسة، منهج التوفيق والترجيح، 87.

[48] الأستاذ أحمد العايد، المعجم العربي الأساسي، 1224؛ انظر: لويس معلوف، المنجد في اللغة، 832.

[49] عبد اللطيف عبد الله عزيز البرزنجي، التعارض والترجيح بين الأدلة الشرعية، بحث أصولي بالمذاهب الإسلامية المختلفة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1413 هـ-1993 م)، 1: 33-34. انظر: محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات والفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996 م)، 1: 514.

[50] عبد الله بن أحمد بن قدامة، روضة الناظر وجُنّة الْمُنَاظِر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (مكة: المكتبة المكية؛ الرياض: المكتبة التربوية؛ بيروت: مؤسسة الريان، ط1، 1419 هـ-1998 هـ)، 1: 86.

[51] محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي، القاموس المحيط وبهامشه تعليقات وشروح، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة 1301 هـ (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتب، 1398 هـ)، 2: 34.

أحدهما إبطال الآخر لأن التناقض هو كما عبّره التهانوي: «التناقض: تقابل الدليلين المتساويين على وجه لا يمكن الجمع بينهما بوجه ويسمى بالتعارض والمعارضة أيضًا.»[52]

ولكن لا يعتبر بعض العلماء الآخرين التناقض والتعارض مترادفَيْن فيرون فرقًا عظيمًا بينهما بحيث من التعارض ما يمكن وقوعه في القرآن وهو التعارض الصوري أي: الظاهريّ مثل ما يظهر بين الآية المنسوخة والآية التي نسختها فيكون دفع هذا النوع من التعارض سهلًا، ومنه ما لا يمكن وقوعه في القرآن وهو التعارض الحقيقي. وأما التناقض، هو ليس كذلك، لا يمكن وقوع أيّ نوع من التناقض في القرآن[53].

وعلى حسب ذلك، لن يجتمع الشَّيْئَانِ المتناقضان في شيء واحد وحال واحدة كالنور والظلام، وإنما يحدث التناقض إذا أُثْبِتَ ما نُفِيَ، أو نُفِيَ ما أُثْبِتَ فلا يوجد في القرآن أيُّ تناقض قطّ لأن «التناقض في اللفظ ما ضادّه من كلّ جهة على حسب ما تقتضيه الأسماء»[54]. وأما حالُ **الآية المنسوخة** التي أوجبت حكما و**الآية الناسخة** التي أوجبت حكما خلاف ذلك الحكم، هذا الحال ليس تناقُضًا لأن الناسخ والمنسوخ يُوجَدان في وقتين مختلفين فلم يتحقق أحد شروط التناقض وهو: «كون الشيء مأمورًا به ومنهيًا عنه في زمان واحد»[55]. فلا يقع التناقض بين الناسخ والمنسوخ لأن حُكْم الآية المتأخرة في النزول موجود بيد أن حكم الآية المتقدمة غيرُ موجودٍ بعد النسخ[56].

المبحث الثالث: بيان سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض.

وقال صدر الشريعة: «لا تناقض بين أدلة الشرع لأنه دليل الجهل»[57] فلا يمكن أن يقع ذلك في كلام الله الذي يعلم الماضي والمستقبل لأنه **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**[58] فسبحانه وتعالى عما أُسنِد إليه من

---

[52] محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات والفنون والعلوم، 1: 514.

[53] انظر: البرزنجي، التعارض والترجيح، 1: 37.

[54] الزركشي، البرهان، 2: 53.

[55] نجم الدين محمد الدركاني، التلقيح شرح التنقيح للإمام القاضي صدر الشريعة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1421 هـ-2001 م)، 309.

[56] انظر: العثيمين، أصول في التفسير، 46. لأن التناقض لا يقع إلا بين شيئين ثابتين متقابلين على سبيل التمانع.

[57] سعد الدين بن عمر التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه (التنقيح مع شرحه المسمى بالتوضيح لصدر الشريعة) (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1)، 2: 217.

[58] الأنعام 6: 73. وانظر: البقرة 2: 255؛ طه 20: 110؛ الأنبياء 21: 28.

الجهل. لن يميل مؤمن إلى قبول أيّ تناقض في القرآن لأن «صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل أو تناقض لقوله تعالى: **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** . [فصلت: 42] وقوله: **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** [النساء: 82].»[59]

قال العثيمين «ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري؛ لأنه يلزم كون إحداهما كذبًا وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** [النساء: 87] **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا** [النساء: 122] ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حُكْمِي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى قال الله تعالى: **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** [البقرة: 106] وإذا ثبت النسخ كان حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.»[60]

وفصّل الزركشي سبب هذا الحكم بذكر بعض شروط التناقض كما يلي: «وإنما التناقض في اللفظ ما ضادّه من كلّ جهة على حسب ما تقتضيه الأسماء، ولن يوجد في الكتاب ولا في السنة شيء من ذلك أبدا؛ وإنما يُوجد فيه النَّسخ في وقتين، بأن يُوجِب حكما ثم يحلّه، وهذا لا تناقضَ فيه، وتناقضُ الكلام لا يكون إلا في إثبات ما نُفِيَ أو نَفْي ما أثبت؛ بحيث يشترك المثبَتُ والمنفيّ في الاسم والحدث والزمان والأفعال والحقيقة؛ فلو كان الاسم حقيقة في أحدهما، وفي الآخر مستعارا، ونفى أحدهما، وأثبت الآخر لم يعدّ تناقضا.»[61] وقال السيوطي: «اعلمْ أنَّ هذا القرآنَ نَزَلَ على رسول الله ﷺ بحضرةِ رجالٍ، وبين ظهرانَيْ قومٍ، كانوا أحرصَ الخَلْقِ على أن يجدوا فيه مَغْمَزًا وعليه مَطْعَنًا، فلو كان هذا عندهم مناقضةً لتعلّقوا به، وأسرعوا بالردّ عليه، ولكنَّ القوم علموا وجَهِلْتَ فلم يُنْكِروا منه ما أنكَرْتَ.»[62]

المبحث الرابع: أسباب توَهُّم التناقض في الآيات مع بيان طُرق دفع التوهم عنها

---

[59] محمد صالح العثيمين، أصول في التفسير، 46.

[60] المصدر السابق.

[61] الزركشي، البرهان، 2: 53. ذكره نقلًا عن أبي بكر الصيرفي؛ وانظر: السيوطي، الإتقان، 4: 1484، 1485.

[62] السيوطي، الإتقان، 4: 1483؛ وفصّل القاضي عبد الجبار هذا الموضوع بالتفصيل في باب: «فصل في بُطلان طعنهم في القرآن، بأن فيه تناقضًا واختلافًا، فيما يتصل باللفظ، والمعنى، والمذهب [في بيان أن التناقض لو ظهر في القرآن لكان المخالفون المعاصرون للرسول ﷺ قد بينوا ذلك]» القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: الدكتور خضر محمد نبها (بيروت: دار الكتب العلمية)، 16: 339، 340.

إن لتوهّم التناقض في القرآن أسبابا مختلفة، ومنها الفهم الخاطئ نتيجةَ عَدَمِ التدبُّر التامّ من أجل الجهل الشديد باللغة العربية وأصول التفسير وعلوم القرآن وأسبابًا أخرى مرتبطة بهذه العلوم[63]. ولكني أكتفي بتعاريف ثلاثة أسباب منها فقط في هذه المقالة لكونها من أسباب إيهام التّعارض بين الآيات التي أنا بصددها في دفع التعارض المتوهم في مسألة مغفرة الله تعالى للمشركين والكافرين والمرتدين وعدمها.

المطلب الأول: اتفاق الموضوع مع اختلاف المكان والزمان للآيات

يخبر بعض الآيات عن نفس الموضوع ولكن مكان أو زمان هذا الموضوع الذي تخبر عنه آية يكون غير الذي تخبر عنه آية أو آيات أخرى فيتوهم التناقضَ بينها من لا ينتبه إلى هذه الحقيقة. ومثلا، يخبر بعض الآيات عما يفعله تعالى حينما يتوب المشركون والكافرون والمرتدون إليه توبة صحيحة مقبولة في حياتهم الدنيوية (أي: يقبل توبتهم) بيد أن الآيات الأخرى تخبر عما يفعله خلاف ذلك يوم القيامة حينما يتوبون إليه وهم يصطرخون (أي: لا يقبل توبتهم) إذا ماتوا مشركين وكافرين ومرتدّين. وهذا الخلاف بين الخبرين لا يكون تناقضًا من أجل اتّفاق موضوعهما مع اختلاف مكانهما وزمانهما. وذكرت تفاصيلها في مواضعها في الفصل الثاني من هذه المقالة.

المطلب الثاني: أسلوب القرآن في العامّ والخاص

قال العك: «تعريف العام: "العام: هو ما وُضع وضعًا واحدًا لكثير غير محصور". لقد جاءت ألفاظ كثيرة من ألفاظ القرآن الكريم تحمل معنى العموم، للدلالة على جميع ما يصلح له من الأفراد، وذلك على سبيل الشمول والاستغراق من غير حصر في كمّية معينة أو عدد محدد.»[64]

وأما الخاص في الاصطلاح، فهو: «كل لفظ وُضع لمعنًى واحدٍ على انفراد وقطع المشاركة»[65]. «فالتخصيص: هو صرف العام عن عمومه بدليل يدل على ذلك، وإرادة بعض ما ينطوي تحته من

---

[63] مِثْلَ: متشابهات القرآن التي تُعتَبر نوعًا من مشكل القرآن، واختلاف الموضوع مع اتفاق الكلمات والأفعال التي استُعْمِلت في الآيات، والأطوار المتغيرة التي ذُكِرت لموضوع خاص في الآيات المختلفة، وتوهُّم استحالة المعنى الظاهري المتبادر إلى الذهن في بعض الآيات، واقتران المعنى الحقيقي بالمعنى المجازي، والإيجاز والاختصار والحذف والإضمار في القرآن، وحمل معنى الآية على المعنى المتبادر إلى الذهن بالخطأ، وعدم المغفرة بأسباب النزول، وعدم معرفة سباق الآيات وسياقها؛ وعدم معرفة أسلوب القرآن في الخطابات، وأسلوب القرآن في المجمل والمبين، فلم أفصّل هذه الأسباب حذَرَ استطالةِ مقالتي المحدودة حجمُها.

[64] خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، 380.

أفراد.»[66] ولا يتحقّق التعارض الحقيقي بين آيات القرآن، فإذا اطُّلِع على التعارض الصوريّ (الظاهريّ) بينها، لا بد من دفعه بحمل عام على خاص، أو غير ذلك من التصرفات[67]. وعدم معرفةٍ بهذا المسلك يسبّب توهُّم التعارض بين بعض الآيات القرآنية.

وذكرتُ مثال العامّ والخاصّ بالتفصيل تحت عنوان: **"موهم الاختلاف والتناقض في آيةِ جزاءِ السُّوءِ التي تحتوي حكْمًا عامًّا"** في موضِعِه من الفصل الثاني في هذه المقالة.

المطلب الثالث: أسلوب القرآن في المطلق والمقيد: قال فهد الرومي: «والمُطْلَق هو: ما دَلَّ على الماهية بلا قيد. والمُقَيَّد هو: ما دَلَّ على الماهية بقيد.»[68]. إن سبب وجود المطلق والمقيَّد في القرآن إنزاله قرآنًا عربيًّا وكون استحباب الإطلاق مذهبَ العرب في لغتهم اكتفاء بالمقيَّد وطلبا للإيجاز والاختصار[69]. إن المطلق مع المقيد كالعام مع الخاص[70] فإذا اطُّلِع على التعارض الظاهريّ بين آيات تحتوي حكما مطلقًا، يُحْمل المُطلق على المُقَيَّد.[71]

إنّ أمثلة هذا الإطلاق توجد في الآيات التي تنفي قبول توبة المشركين والكافرين والمرتدّين مطلقًا بيد أن آيات أخرى تقيّدُ عدم مغفرته لهم بموتهم على الشرك والكفر والارتداد فاستشكلت الآيات. وإذا كان الأمر كذلك، «يجب حَمْل المُطلق على المُقَيَّد إذا وُجِدَ دليل يقتضي التقييد»[72] وبسلوك هذا المسلك يُدفَع إيهامُ التَّعارُض عنها، وقد فصّلتُها في مباحث ثلاثة من الفصل الثاني في هذه المقالة.

المطلب الرابع: واجبةُ من اطّلع على موهم الاختلاف والتناقض

إيهام التناقض في القرآن نوع جهل بالقرآن، فإذا اطّلع مسلمٌ على آية يوهم ظاهرها التناقض مع آية أخرى، يجب عليه أن يبحث عن سبب هذا الإيهام مع طُرُق دفعه عنهما. وإن لم تتبيّن له طرق دفع التناقض -من أجل قلة فهمه وعلمه- فيجب عليه ردّه إلى عالِمه مع الإيمان بالقرآن كتابَ الله

---

[65] المصدر السابق، 402.

[66] المصدر السابق، 384. إن العام والخاص مثل المستثنى منه والمستثنى. (انظر: **تفسير** ابن كثير، 1: 461).

[67] انظر: الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، 6: 111.

[68] فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، بحوث في أصول التفسير ومناهجه (مكتبة التوبة)، 48.

[69] انظر: لزركشي، البرهان، 2: 16، 17؛ انظر: السيوطي: الإتقان، 4: 1486.

[70] انظر: السيوطي: الإتقان، 4: 1486؛ الطبري، جامع البيان، 9: 634.

[71] انظر: الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، 6: 111.

[72] فهد الرومي، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، 48. وانظر: السيوطي: الإتقان، 4: 1486.

سالمًا من كل تناقض كما أمره الرسول ﷺ فيما يرويه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «إِنَّ القرآنَ لم يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بعضُه بعضًا، بل يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا، فما عَرَفْتُمْ منه، فاعملوا به، وما جَهِلْتُمْ منه، فرُدُّوه إلى عَالِمِهِ»[73] وإن عجز مَن رُدَّ إليه الأمر عن العثور على ما يرفع به التناقض، فيجب عليه التوقُّف أي: الامتناع عن القول في القرآن بما لا يعلم إلى أن تتّضح له طرقُ دفع إيهام التعارض لِئَلَّا يقول على الله ما لا يَعْلَمُ لأنه حرام بدلالة الآية: 33 من سورة الأعراف[74].

الفصل الثاني: هل يقبل الله توبة المشركين والكافرين الظالمين، والمرتدين في الدنيا أم لا؟

إن ظواهر بعض آيات القرآن توهم أن الله لا يغفر ذنوب الشرك والكفر والارتداد أبدًا[75] بيد أنها توهم التعارض مع الآية: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[76] ومع آيات أخرى تخبر أن الله يقبل توبة كل عباده مشروطًا بالتوبة الصحيحة كما تقدم ذكرها تحت عنوان: "**شروط توبة مقبولة**" بالتفصيل. فكيف يرتفع التعارض المتوهم بين هذه الآيات؟ إن الجواب عن هذا السؤال يشتمل على مقدمة وثلاثة مباحث.

المقدمة: وهي تشتمل على أربعة مسائل تحتاج إلى شرح أو تعريف كما في التالي:

أوّلًا: تعريف وسعة مغفرة الله لكل عباده وإن ارتكبوا من الكبائر: قال ابن كثير في تفسيره للآية: 53 من سورة الزمر: «هذه الآية الكريمة دعوةٌ لجميع العصاة من الكَفَرة وغيرهم إلى التوبة والإنابةِ، وإخبارٌ بأن الله يغفِرُ الذنوبَ جميعًا لمن تاب منها وَرَجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كَثُرت وكانت مثلَ زَبَدِ البحرِ.»[77] لأن الله خاطب فيها بقوله: "**يَا عِبَادِيَ**" كل عباده فأتثبت مغفرته لِلْمُذْنِبين عامَّةً، سواء كانوا كافرين أو مشركين أو مرتدين أو غيرهم[78]. ولا يصِحّ -باعتبار سبب نزولها وورود كلمة الشرك فيها- أن يقال إنها تخبر عن مغفرة الله للمشركين فقط لأن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[79].

---

[73] أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، 11: 305، رقم الحديث: 6702. (صحّحه شعيب الأرناؤوط).

[74] انظر: عبد الله بن حمد المنصور، مشكل القرآن الكريم، 135. الطبري، جامع البيان، 1: 73.

[75] انظر: آل عمران 3: 90؛ النساء 4: 48، 116، 137، 168، 169؛ ذكرت متونها في مواضعها.

[76] الزمر 39: 53.

[77] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 5: 374. وانظر: نفس المصدر، 2: 34؛ الطبري، جامع البيان، 7: 476.

[78] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3: 186، 465.

[79] مساعد بن سليمان الطيار، فصول في أصول التفسير، 99؛ فهد الرومي، بحوث في أصول التفسير، 137؛ الزرقاني، مناهل العرفان، 1: 110؛ وانظر: الزركشي، البرهان، 1: 32؛ السيوطي، الإتقان، 1: 196.

وقال تعالى في شأن المنافقين الذين هم أقبح الناس عند الله فأشدُّهم عذابًا يوم القيامة من الكفار لكونهم ضَمُّوا إلى الكفر المشترك استهزاءً بالإسلام وخداعًا لأهله[80]: **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ـ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**.[81]

فإذا كانت توبةُ المنافقين الصحيحةُ مقبولةً عند الله كذلك، يتَّضِح شأن الكافرين والمشركين والمرتدين أيضًا إذا تابوا إلى الله توبة صحيحة. وقال ابن كثير في تفسيره للآية: "**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**": إن هذه الآية مشروطة بالتوبة إذا كان الذنب شركًا، فلا يَصِحُّ حملُها على غير توبةٍ حينذاك، لأن الشرك لا يُغفَر لمن لم يَتُب منه، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرَّر منه، تاب الله عليه إذا يشاء[82].

حَكم الله في الآيتين: 48، 116 من سورة النساء بأنه يغفر كل الذنوب دون الشرك لمن يشاء وإن لم يتُب من ارتكبها[83] ولكن مغفرة الكفر والنفاق والارتداد مشروطة بالتوبة الصحيحة مثل شأن الشرك لأن هذه الذنوب ليست دون الشرك، فلقبول التوبة منها شروط كما في التالي:

ثانيًا: شروط توبة مقبولة في الآيات القرآنية: قال تعالى: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**.[84][85] ذكر تعالى هنا أن يكون عمَلُ السوءِ "**بِجَهَالَةٍ**" الشرطَ الأوّل لقبول التوبة ولكن هذا الشرط لا ينفي قبول توبة مَن يعمل السوء عَمْدًا وهو يعلم جُرمه لأن المراد من الجهالة فيها ليس بعدم العلم بل هو الجهلُ والسَّفَه بارتكاب ما لا يليق بالعاقل[86].

قال الآلوسي إن الجهل بهذا المعنى حقيقةٌ واردةٌ في كلام العرب فاستشهد بشعر على صحة هذا القول ثم ذكر هذه الأقوال الثلاثة من الصحابة والتابعين في معنى الجهل: الأول: كلُّ مَنْ عصى ربَّه فهو جاهلٌ، حتى ينزعَ عن معصيته. الثاني: اجتمع أصحاب محمدٍ ﷺ فرأَوا أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ به فهو جَهالةٌ، عمدًا كان أو غيره. الثالث: كُلُّ ذنبٍ عَمِلَهُ العبدُ وإن كان عالمًا، فهو جاهلٌ فيه حين

---

[80] انظر: الآلوسي، روح المعاني، 6: 355.

[81] النساء 4: 145، 146.

[82] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 5: 374. يُفهم هذا الحكم بتأمل الآيتين: 48 و116 من سورة النساء اللَّتَيْنِ تفيدان حكمًا مطلقًا فقيدتها الآيتان: 17، 18 من سورة النساء، والآية: 53، من سورة الزمر.

[83] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2: 274؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 11: 46.

[84] «أي: المعصيةَ صغيرةً كانت أو كبيرة» (الآلوسي، روح المعاني، 5: 384).

[85] النساء 4: 17. ونظيراها: الأنعام 6: 54؛ النحل 16: 119.

[86] انظر: الآلوسي، روح المعاني، 5: 385.

خاطَر بنفسه في معصية ربّه، فقال عقِب ذلك: «فقد حَكى اللهُ تعالى قولَ يوسفَ عليه السلام لإخوته: **هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** [النساء: 82] فَنَسَبَهُمْ إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله تعالى.»[87] وعلى حسب ذلك، يظهر أن الكفر بالله، والشرك على الله، والارتداد من جنس هذه الجهالة فيمكن التوبة إلى الله منها لأنه «لا كبيرةَ مع استغفارٍ»[88].

وأما **الشرط الثاني** لقبول التوبة، فهو يُفهَم من قوله تعالى: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ**.[89] ومعناه: «من زمان قريب، أي قبل حضور الموت لقوله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**[90] وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر"[91] وسماه قريبًا لأن أمد الحياة قريب»[92].

ثالثًا: موهم الاختلاف والتناقض في آيَةِ جزاءِ السُّوءِ التي تحتوي حكْمًا عامًّا: السؤال: إنّ ظاهر الآيات التي تخبر عن وسعة مغفرة الله تعالى والتوبة الصحيحة المقبولة لكل ذنب يوهم التعارض مع ظاهر هذه الآية: **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**.[93] إن هذه الآية تخبر عن حكم عام يُثبِت جزاءً لكل سيئة خلافَ الآيات الأخرى المشار إليها فاستشكلت. وكيف يرفع هذا التعارض المتوهم؟

الجواب: ذكر النيسابوري إن قوله تعالى: "**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**" مخصوص بالكفار الذين ماتوا على كفرهم لأنهم مخاطبون بالفروع. وبالإضافة، أن الآية تعم المؤمن والكافر وغيرهم إلا أنها مخصوصة في حق المؤمن بقوله: **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**.[94] ومن أجل ذلك، في جواب هذا السؤال وجهَان:

---

[87] الآلوسي، روح المعاني، 5: 385.

[88] الطبري، جامع البيان، 6: 651. (روي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما).

[89] النساء 4: 17.

[90] النساء 4: 18.

[91] أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي، الجامع الصحيح وهو سنن التِّرْمِذِيّ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار، رقم الحديث: 3537، فقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

[92] البيضاوي ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي)، 2: 65.

[93] النساء 4: 123.

[94] انظر: العلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1416 هـ-1996 م)، 2: 501، 502؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 11: 54.

الوجه الأول: إذا اعتُبِرَ أن قوله تعالى: "**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**" مخصوص بمَن مات على دين باطل (كما يظهر ذلك بحمل العامّ على الخاصّ)، لا يكون أيُّ توهُّمِ التعارض بينها وآيات التوبة الصحيحة من كل ذنب.

الوجه الثاني: إذا اعتُبِرَ أن الآية: "**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**" تعمّ المؤمنين أيضًا مع الكافرين، فلها مسألتان: **المسألة الأولى:** المراد من الجزاء فيها ما يصل إلى المؤمنين في الدنيا من كلّ بلاء ومصيبة بَيْد أنّ المراد من آيات التوبة المقبولة التي تنفي جزاء السوء، أن الله يغفر لبعض المؤمنين يوم القيامة فيدخلهم برحمته الجنة من غير أن يعذّبهم في جهنم. كذلك يرفع التعارض المتوهم بين الآيات باتفاق الموضوع واختلاف المكان والزمان للآيات، لأن الآية الأولى (أي: النساء 4: 123) تخبر عن أحوال المؤمنين في الدنيا بيد أن الآيات الأخرى التي تنفي جزاء السوء عن المؤمنين، إنما هي تخبر عن أحوالهم بعد موتهم يوم القيامة. يعني: يرفع إبهام التعارض عن هذه الآيات من أجل عدم تحقُّق شرط من شروط التعارض، أي: اتحاد الزمان والمكان بينها.

والدليل على صحة هذا القول المذكور من القرآن، قوله تعالى: **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ**.[95] وأما الدليل من السنة: لقد رُوِي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سأل رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية كما يلي: «يا رسولَ الله، إنا لنُجازَى بكل سوءٍ نعمَلُه؟ فقال رسول الله ﷺ: "يَرحمُك الله يا أَبا بكر، أَلستَ تنصَبُ؟ أَلستَ تحزَنُ؟ أَلستَ تُصيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ فهٰذا ما تُجزَوْنَ به."»[96]

المسألة الثانية: المراد من الجزاء في الآية: "**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**" كلُّ المصائب أصابت المسلمين في الحياة الدنيا، وعذابُ جهنم التي يصلاها الجهَنَّمِيُّونَ[97] في موقف من مواقف يوم القيامة

---

[95] المائدة 5: 38. ذكرها الرازي دليلًا على صحة هذا القول. انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 11: 53.

[96] أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، 1: 232، رقم الحديث: 71. (صحّحه شعيب الأرنؤوط). ويؤيده حديث في صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما جاء في كفارة المرض وقول الله تعالى **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**، رقم الحديث: 5641، 5642.

[97] سمّاهم الرسول هؤلاء المسلمين ﷺ كذلك في رواية: «عن أَنَسٍ رضي اللّه عنه عنِ النبيّ صلى اللّه عليه وسلم قال لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنَ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوها عُقُوبَةً ثم يُدْخِلُهُمْ اللّهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ يُقَالُ لَهُمُ الجَهَنَّمِيُّونَ.» (البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله إن رحمة الله قريب من المحسنين، رقم الحديث: 7450).

الطويل فيمكثون في جهنم معذَّبين حتى يطهّرهم الله من ذنوبهم لأن الله لا يغفر لهم عاجلًا بل يأجّل مغفرته لهم فيخرجهم منها. وأما الآيات الأخرى التي تثبت مغفرة الله لهؤلاء المسلمين الجهنميين فهي تخبر عن موقفٍ آخر من مواقف يوم القيامة الطويل حيث يغفر الله لهم بعد أن يمكثوا في النار إلى مدة فيخرجهم منها ثم يدخلهم إلى الجنة. يعني: أن هذه الآيات تخبر عن موقفَين مختلفين من يوم القيامة فلا تعارض بينها من أجل عدم إثبات شيء ثم نفْيه في زمان واحد من شروط التعارض.

رابعًا: شروط توبةٍ غيرِ مقبولة: لقد ذُكِر في القرآن والسنة الصحيحة لها أربعة شروط:

الشرط الأول: الموت على الكفرِ والشركِ والارتدادِ والنفاقِ (ذكرت تفاصيله في مواضعه في ثلاثة مباحث من الفصل الثاني في هذه المقالة.).

الشرط الثاني: عند حضور الموت: قال تعالى: **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ.**[98] يعني: متى وقع الإياسُ من الحياة وعَايَنَ الملك، فلا توبة مقبولة حينئذ.[99]

الشرط الثالث: عند معاينة العذاب الواقع بهم في الدنيا: قال تعالى: **فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا**[100] ومعناها: فلم يك ينفعهم إيمانهم لما عاينوا وقوع العذاب بهم[101] لأن معذرتهم حينذاك لا تنفعهم فلا يُقْبل الإيمان حينذاك كما لم يُقْبل ذلك من فرعون حين أدركه الغرق من أجل تأخير الإيمان إلى حد يمتنع قبوله فيه[102]. لأن «إيمان البأس واليأس غيرُ مقبولٍ»[103] يعني: أن الحُكْم في عدم قبول التوبة عند معاينة العذاب الواقع بهم في الدنيا، نفس الحكم في التوبة عند حضور الموت، لأنهم يئسوا من الحياة حينما عاينوا وقوع العذاب بهم فأيقنوا بالممات حينئذ[104].

---

[98] النساء 4: 18. ونظيراها: المؤمنون 23: 99؛ المنافقون 63: 10.

[99] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2: 195.

[100] غافر 40: 85.

[101] انظر: الطبري، جامع البيان، 2: 373، 374.

[102] انظر: يونس 10: 90، 91. الآلوسي، روح المعاني، 11: 277. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2: 195.

[103] الآلوسي، روح المعاني، 11: 288.

[104] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 5: 417.

الشرط الرابع: عند معاينة بعض أشراط الساعة، أي: طلوع الشمس من مغربها، خروج دابة الأرض[105] وخروج الدجال[106]. ذكر الإمام مسلم هذه الثلاثة فقط من أشراط الساعة في هذا الموضوع واستشكل حديث في دابة الأرض والدجال في هذا الموضوع[107] فمن أجل ذلك لم أتطرق إلى بيانهما في هذه المقالة لأن موضوعهما الواسع يجدر أن يُبحث عنه في مقالة متعلقة بعلم مختلف الحديث فاكتفيت بذكر تفاصيل أحد أشراط القيامة فقط كما في التالي:

عند معاينة الشمس طالعةً من مغربها: أخرج البخاري عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا فَذَاكَ حِينَ **"لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ"**[108]**.»**[109]

المبحث الأول: دفع التناقض المتوهم عن الآية التي تنفي مغفرة الله للمشركين مطلقًا.

قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ.**[110] إنّ ظاهر هذه الآية نفى مغفرة ذنب الشرك بالله مطلقًا ولكن هذا المعنى الظاهري يتعارض مع قوله تعالى: "**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ**

---

[105] **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ** ﴿٨٢﴾ [النمل 27: 82]

[106] انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بَيَانِ الزَّمَنِ الَّذِي لا يُقْبَلُ فِيهِ الإِيمَانُ، رقم الحديث: 157-159. ولتعريف الدجال، انظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الفتن، باب 26 (باب ذكر الدجال)، وباب 27 (باب لا يدخل الدجال المدينة)، رح: 7122 - 7134.

[107] انظر: مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بَيَانِ الزَّمَنِ الَّذِي لا يُقْبَلُ فِيهِ الإِيمَانُ، رقم الحديث: 158 وذكر الآلوسي وجه الإشكال فيه. (انظر: الآلوسي، روح المعاني، 8: 515). وهناك حديث آخر أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب: خُرُوجِ الدَّجَّالِ ومُكْثِهِ في الأرْضِ، رقم الحديث: 2941 وفيه إشكال آخر ولكن ابن كثير بيَّن طريق دفع هذا الإشكال عنه. (انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 19: 254).

[108] الأنعام 6: 158، ونص بعض هذه الآية كما يلي: **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**.

[109] البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير (سورة الأنعام)، باب 9، رقم الحديث: 4635؛ انظر: مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بَيَانِ الزَّمَنِ الَّذِي لا يُقْبَلُ فِيهِ الإِيمَانُ، رقم الحديث: 157. ولبيان سبب عدم نفع الايمان عند ذلك، فانظر: الآلوسي، روح المعاني، 8: 515.

الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" والآياتِ الأخرى التي قد تقدم ذكرها في شروط التوبة المقبولة من هذه المقالة. فكيف يُثبَت زوالُ التناقض والتعارض عن هذه الآيات؟

الجواب: قال ابن الجوزي في تفسيره للآية: 48 من سورة النساء: «والمراد من الآية: لا يغفر لمشرك مات على شركه»[111]. وقال الخازن فيها: « فهذا نص صريح بأن الشرك غير مغفور إذا مات صاحبه عليه لأنه قد ثبت أن المشرك إذا تاب من شركه وآمن قبلت توبته وصح إيمانه وغفرت ذنوبه كلها التي عملها في حال الشرك»[112]. وقد فسّر جمهورُ المفسرين هذه الآية مثل ذلك لأن أسباب نزول

---

[110] النساء 4: 48، 116. ذكرت في الهامش: 5 مثالًا يشير إلى أن في بعض كتب إسلاميات معلومات تجعل بعض التلاميذ يفهمون من هذه الآية معنًى خاطئًا فيتوهمون التناقض في القرآن، وأذكر الآن في التالي مثالًا آخر لهذه المشكلة في بعض وسائل التعليم الإسلامي:

"This is the most unforgivable sin and should never be committed as God has said in several places in the Qur'an e.g. '*Allah forgives not that partners should be set up with Him, but He forgives anything else to whom He pleases*.' (*Al Nisa* 4:48)" Cambridge IGCSE, ISLAMIYAT Paper 2, MARK SCHEME, MAY/JUNE 2017, Question 4 (a).

معناه: "هذا (يعني الشرك) أعظم ذنب لا يُغْتَفَرُ فلا ينبغي أبدًا أن يُرتكَب كما قال الله في عدة مواضع في القرآن، مثلًا: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** (النساء 4: 48)".

إن هذه المعلومات تحتاج على الأقل إلى شرح يُبَيِّنها كما يلي: أن الشرك غير مغفور (إذا مات مشرك على الشرك)، وبدون هذا الشرح بين القوسين، يفهم منه من قلّ فهمُه معنًى غيرَ قابلٍ يتناقض مع المعاني المرادة من آيات أخرى. مثلًا، أني شاهدت مِن مدرّسي إسلاميات مَنْ يعلّم تلاميذه في ثانوية معنى هذه الآية، بناء على ما رأى في مثل هذه الوسائل التعليمية الإسلامية بالإنجليزية، كما يلي: "أن الله لن يغفر مشركين -مثلًا مَسِيحِيّينَ- فلا يجوز لمسلم أن يكون له أيُّ صديق منهم فيجب على المسلمين أن يبتعدوا عنهم أشد الابتعاد." وضرر هذا الفهم الخاطئ بدعوة الإسلام واضح وهذا يشير إلى أهمية موضوعي في هذه المقالة.

[111] ابن الجوزي، زاد المسير، 2: 103. وانظر: النسفي، مدارك التنزيل، 1: 364.

[112] الخازن، لباب التأويل، 1: 427.

الآية: **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾** تفيد هذا المعنى كما في التالي:

أحدها: «أن ناسًا من المشركين كانوا قد قَتَلُوا فأكثَروا، وزَنَوْا فأكثروا، ثم أتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: إنّ الذي تدعو إليه لَحَسَنٌ لو تُخْبِرُنا أنّ لِمَا عَمِلْنا كفّارةً، فنزلت هذه الآية.»[113]

ثانيها: «إن الآية نزلت في وحشي[114] وأصحابه، وذلك لما قتل حمزة رضي الله عنه ورجع إلى مكة ندم هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنا ندمنا على ما صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلّا أنا سمعناك بمكة تقول "**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ**"[115] إلى آخر الآيات وقد دعونا مع الله إلهًا آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزلت "**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا**"[116] الآيتين فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم فلما قرؤوهما كتبوا إليه إن هذا شرط شديد ونخاف أن لا نعمل عملًا صالحًا فنزلت "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**" فبعث إليهم فبعثوا إنا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت **قُلْ يَا عِبَادِيَ**

---

[113] ابن الجوزي، زاد المسير، 7: 190. أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في الجامع الصحيح، كتاب التفسير (سورة الزمر)، باب:1، رقم الحديث: 4810؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، رقم الحديث: 122؛ انظر: الواحدي، أسباب النزول، 370.

[114] هو أبو دسمة، وحشي بن حرب الحبشي. كان مولى جُبير بن مطعم وقيل غير ذلك. لقد قتل عم رسول الله حمزة يوم بدر من أخيار الناس وشرك في قتل المتنبئ مسيلمة الكذاب من أشرار الناس. سكن حمص فمات بها في زمن خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: ابح حجر، الإصابة، 6: 315، رقم الترحمة: 9110؛ عز الدين ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمود معوض-عادل أحمد عبد الموجود (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1417 هـ / 1996 م)، 5: 409 - 411، رقم الترجمة: 5449.

[115] الفرقان 25: 68.

[116] الفرقان 25: 70.

الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ[117] الآية فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم»[118].

ثالثها: «أن أهل مكة قالوا يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له فكيف نهاجر ونسلم وقد فعلنا ذلك فنزلت هذه الآية وهذا مروي عن ابن عباس أيضا»[119].

وخلاصة القول: برز جليًّا في ضوء أسباب النزول أنه لا تناقض بين قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**[120] وبين الآيات التي تثبت مغفرة كلّ الذنوب ولو كان شِرْكًا إذا تاب المشركون توبةً صحيحةً في حياتهم الدنيوية، لأن هذه الآية التي تنفي مغفرة الله للمشركين إنما تخبر عن حُكْم منحصرٍ في يوم القيامة حينما يتوب المشركون المعذَّبُون في جهنَّم "**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**"[121] فلا تنفعهم توبتهم حينذاك، ويرتفع إبهام التناقض بين هذه الآيات سهلًا من أجل عدم تحقُّق شرطٍ من شروط التّناقُض[122].

وبالإضافة، أن مسألة توهُّم التعارض بين هذه الآيات من مسائل تعارض المطلق والمقيد، لأن الإطلاق في قوله تعالى: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**"، قُيّد بتأخير التوبة إلى حضور الموت، والموت على الشرك في قوله تعالى: **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ**.[123] قد يُحكَم كذلك، لأن المُشْركين يُسَمَّوْن كُفَّارًا أيضًا - ولو كانوا من أهل الكتاب- من أجل إنكارهم آخر شريعة أنزلها الله على رسول الله وخاتم النبيين محمد ﷺ كما يثبت ذلك قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**.[124] ولذا، اقتداءً

---

[117] الزمر 39: 53.

[118] الخازن، لباب التأويل، 1: 387؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 10: 129؛ الواحدي، أسباب النزول، 336. وذكر الواحدي أن وحشيًّا قال حينما سمع الآية الأخيرة: «نعم الآن لا أرى شرطًا» فأَسلم. (المصدر السابق)

[119] ابن الجوزي، زاد المسير، 7: 190. وانظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 27: 6؛ الواحدي، أسباب النزول، 369.

[120] النساء 4: 48، 116.

[121] فاطر 35: 37.

[122] أي: عدم اتّحاد الزمان والمكان بين موضوع الآيتين. (انظر: خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير، 2: 698).

[123] النساء 4: 18.

[124] البينة 98: ٦. وانظر: البقرة 2: 105؛ الحشر 59: 2، 11؛ البينة 98: 1.

بمقتضى الأصول يجب حمل المطلق على الْمُقَيَّد من أجل وجدان الدليل المذكور يقتضي ذلك التقييد.

المبحث الثاني: دفع التعارض المتوهم عن الآيتيْنِ التيْنِ تنفيان قبول توبة المرتدين مطلقًا.

قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾**[125] يُفهَمُ من ظاهر هذه الآية ونظيرها أن باب التوبة مغلق للمرتدّين في الحياة الدنيا وفي الآخرة فلن تُقبَل توبتُهم مهما فعلوا ولكن هذا المعنى مما يوهم ظاهرُه التعارضَ مع ما في التالي:

أوّلًا: مع الآيات الّتي تعِدُ مغفرة الذنوب جميعًا؛

وثانيًا: مع الآيات التي تُثبت أن مغفرة الله لكل عباده مشروطة بالتوبة الصحيحة؛

وثالثًا مع قوله تعالى: **لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾**[126] لأنها تثبت أن الله تعالى يعفو عن طائفة من المرتدين كما عفا عن مخشى بن حُمَيِّر[127] رضي الله عنه. فكيف يزول هذا التعارض والتناقض المتوهم بين هذه الآيات؟

الجواب: سأل الخازن عن مثل هذا السؤال فأجاب عنه نقلًا عن السلف: **لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**[128] **إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**[129] وذكر معنًى آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم الذين ارتدوا وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم والكفر في ضمائرهم[130].

قال الطبري: «فكان معلومًا أن معنى قولِه: **لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**. إنما هو مَعْنِيٌّ به: لن تُقْبَلَ توبتُهم مما ازدادوا من الكفر على كفرِهم بعدَ إيمانِهم، لا مِن كفرهم؛ لأن اللهَ تعالى ذكرُه وعَد أن يَقْبَلَ التوبةَ من عبادِه، فقال: **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**.[131] فمُحالٌ أن يقولَ عزَّ وجلَّ: أقْبَلُ، ولا أقبَلُ. في شيءٍ واحدٍ. وإذ كان ذلك كذلك -وكان من حُكْمِ الله في عبادِه أنه قابِلٌ توبةَ كلِّ تائبٍ من كلِّ

---

[125] آل عمران 3: 90. ونظيرها: النساء 4: 137.

[126] التوبة 9: 66.

[127] هو كان من المنافقين من أصحاب مسجد الضِّرار ثمّ تاب وحَسُنت توبته. (انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، 5: 120، 121، رقم الترجمة: 4799؛ وانظر: ابن حجر، الإصابة، 6: 71، رقم الترجمة: 7835).

[128] التوبة 9: 66.

[129] التوبة 9: 66.

[130] انظر: الخازن، لباب التأويل، 1: 267.

[131] الشورى 42: 25.

ذنبٍ، وكان الكفرُ بعدَ الإيمانِ أحدَ تلك الذنوب التي وَعَدَ قَبولَ التوبةِ منها بقوله: **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**[132] - عُلِم أن المعنَى / الذي لا يَقْبَلُ التوبةَ منه غيرُ المعنى الذي يَقْبَلُ التوبةَ منه. وإذ كان ذلك كذلك، فالذي لا يَقْبَلُ منه التوبةَ هو الازديادُ[133] على الكفرِ بعدَ الكفرِ، لا يَقْبَلُ الله توبةَ صاحبِه ما أقام على كفرِه؛ لأن الله لا يَقْبَلُ من مُشْرِكٍ عملًا ما أقام على شِرْكِه وضَلَالِه، فأمَّا إن تابَ من شِرْكِه وكفرِه وأصلَح، فإن الله - كما وصَف به نفسَه - غفورٌ رحيمٌ.»[134]

يظهر مما تقدم ذكره أن مسألة توهُّم التعارض بين هذه الآيات من مسائل تعارض المطلق والمقيد كما قاله مساعد بن سليمان الطيار حينما ذكَر مثالَ المطلقِ والمقيدِ: «قوله تعالى: "**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**" الآية. قال بعض العلماء: يعني إذا أخروا التوبة إلى حضور الموت، فتابوا حينئذ. وهذا التفسير يشهد له قوله تعالى: "**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ** " فالإطلاق الذي في الآية الأولى ذكر مقيِّدُه في الآية الثانية.»[(135)]

وكذلك قيّدت آية أخرى عاقبةَ المرتدين السيئةَ بشرط مَوْتِهِمْ مرتدين حيث قال تعالى: **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.**[136] ولذا، اقتداءً بمقتضى الأصول يجب حمل المطلق على الْمُقَيَّد من أجل وجدان الدلائل القرآنية التي تقتضي ذلك التقييد.

---

[132] آل عمران 3: 89. وبرز هذا المعنى بتدبّر نص هذه الآية مع سباقها: **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾** [آل عمران 3: 86-89].

[133] «قال مجاهد وغيره من المفسرين: **ازْدَادُوا كُفْرًا** "ثبتوا عليه حتى ماتوا".» (ابن تيمية، تفسير آيات أشكلت، 1: 325) وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2: 58، 361.

[134] الطبري، جامع البيان، 5: 568. وانظر: الخازن، لباب التأويل، 1: 267.

[(135)] مساعد بن سليمان الطيار، فصول في أصول التفسير، 24.

[(136)] البقرة 2: 217.

يعني: أن الله قيَّد عدمَ قبول توبة المرتدين في الآيات المذكورة بِقَيْدَيْن: بتأخيرهم التوبة إلى حضور الموت فتابوا حينئذ، وبموتهم على الكفر فيتوبون يوم الحساب، يوم لا تنفع أحدًا توبته، وإلّا، فلا مانع لقبول توبتهم الصحيحة كما دل على ذلك سبب نزول الآية: **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**. وقد ذكر ابن الجوزي عدّة أسباب نزول هذه الآية المذكورة ومنها: «أنها نزلت في عَيّاش بن أبي ربيعة والوليد ونَفَرٍ من المسلمين كانوا قد أسلموا، ثم عُذِّبوا فافتُتِنوا، فكان أصحاب رسول الله يقولون: لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ هؤلاء صَرْفًا ولا عَدْلًا، قومٌ تركوا دينهم بعذاب عُذِّبوه! فنزلت هذه الآية فكتبها عمر إلى عياش والوليد وأولئك النَّفَر، فأسلَموا وهاجروا»[137].

ويظهر مما تقدم ذكره أنه لا تناقض بين هذه الآيات التي تنفي توبة المرتدين والآيات التي تثبتها، وإنما كان سبب إيهام الناقض بينها اتّفاقَ الموضوع الذي تخبر عنه هذه الآيات مع اختلاف الزمان والمكان لها حيث يثبت ذلك عدم شرط من شروط التناقض لأن الآيات الأولى تخبر عن أحوال يوم القيامة بيد أن الآيات الأخرى تخبر عن أحوال الحياة الدنيا، فبِذكر هذه الحقيقة يندفع توهم التناقض بينها سهلًا بإذن الله تعالى.

المبحث الثالث: دفع التعارض المتوهم عن الآية التي تنفي مغفرة الله للكافرين مطلقًا

قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾**[138] وقول الله هذا مما قد يُتَوَهَّمُ من ظاهره التعارضُ مع قوله تعالى: **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**[139]، وقوله تعالى: **لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾**[140]، ومع الآياتِ الّتي تخبر عن مغفرة الذنوب جميعًا، والآياتِ التي تثبت مغفرة الله لكل ذنب مشروطةً بالتوبة الصحيحة. وقد تقدم ذكر هذه الآيات بما يغنى عن إعادتها هنا.

إن ظاهر الآيتَيْن: 168، 169 من سورة النساء ينفي مغفرة الله للكافرين مطلقًا بيد أن الآية: 38 من سورة الأنفال تفيد أن كُفْرهم، وذنوبهم وخطاياهم يُغْفَرُ لهم إن تركوا ما هم فيه من الكفر

---

[137] ابن الجوزي، زاد المسير، 7: 190. انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 27: 6؛ الواحدي، أسباب النزول، 370.

[138] النساء 4: 168، 169.

[139] الأنفال، 8: 38.

[140] المائدة، 5: 73، 74.

والمشاقَّةِ والعناد، ودخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة.[141] وتفيد الآية: 73 من سورة المائدة أن الله يغفر للكافرين إن تركوا قول الكفر فتدعوهم الآية: 74 بعدها إلى التوبة. فكيف يُرفَع ما يوهم التنافي والتعارض والتناقض بين هذه الآيات؟

الجواب: أن سبب إيهام التعارض بين هذه الآيات من مسائل تعارض المطلق والمقيد، «ومن المعلوم أنه يجب حمل المطلق على المُقَيَّد إذا وُجِدَ دليل يقتضي التقييد»[142] لِيُدْفَعَ إيهام التعارض عن هذه الآيات. إن الآية: 73 من سورة المائدة والآية: 38 من سورة الأنفال دليلان يقتضيان تقييد هذا الحكم المطلق الذي ينفي مغفرة الله للكافرين في الآيتَيْن: 168، 169 من سورة النساء باستمرار الكافرين على قول الكفر حتى ماتوا، كما أن في القرآن دلائل أخرى قيدت هذا الحكم المطلق بموتهم على الكفر واضحًا مثل ما قاله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴿١٦٢﴾**[143].

ومعنى ذلك: أن «الكفار إذا ماتوا على الكفر فلو تابوا في الآخرة لا تقبل توبتهم.»[144] لأنهم لما صارت معارفهم بالله تعالى وكلِّ وعيدِه ضرورية سقط التكليف عنهم فكانت توبتهم عند الحشر والحساب غيرَ مقبولة[145] وهذا واضحٌ في الآية: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ**[146] **فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**[147] **لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ.**[148] ولكن باب التوبة مفتوح لهم في الدنيا إن استَوْفَوا كلّ شروط التوبة الصحيحة لأن الله أثبت مغفرته للكافرين في آيتين المذكورتين بقيد انتهائهم عن الكفر.

---

[141] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3: 275.

[142] فهد الرومي، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، 48.

[143] البقرة 2: 161، 162. ونظائرهما: آل عمران 3: 91؛ النساء 4: 18؛ محمد 47: 34.

[144] الرازي، مفاتيح الغيب، 10: 9. وانظر: ابن تيمية، تفسير آيات أشكلت، 1: 323.

[145] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 10: 8.

[146] النساء 4: 91.

[147] محمد 47: 34.

[148] الشورى، 42: 44. ونظيرها: السجدة، 32: 12.

وبعد أن أثبت الله عدم مغفرته للكافرين بقيد استمرارهم على قول الكفر أردف قائلًا: **أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ**.[149] «وهذا استفهام بمعنى الأمر»[150] أمَر اللهُ الكافرين فيها التوبةَ مما قالوه وعمِلوه بحيث هددتهم الآيات الأخرى بخلودهم في جهنم أبدًا إذا ماتوا على ذنب الكفر. و«كيف لا توجد التوبة من هذا الذنب، وطلب المغفرة، والمسؤول منه ذلك متصف بالغفران التام والرحمة الواسعة لهؤلاء وغيرهم»[151].

وتُوجد دلائل تقتضي تقييد هذا الحكم المطلق في السنة الصحيحة أيضًا كما رُوِي في الصحيحين «عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال قال رَجُلٌ يا رسولَ اللهِ أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنا في الجَاهِلِيَةِ قال مَنْ أَحْسَن فِي الإِسْلَامِ لمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ»[152]. ونظيره قوله ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله»[153] قاله ﷺ لعمرو بن العاص لَمَّا جاء النبيَّ ﷺ لِيبايعَه فاشترط أولًا أن يُغْفَرَ له.

وبجمع آياتٍ وأحاديثَ مقيِّدةٍ المطلقَ في هذا الموضوع، برز أن الحكم المطلق في الآيتين: 168، 169 من سورة النساء على عدم مغفرة الله تعلى للكفرين يُحْمَل على من ماتوا كُفّارًا أو من لم يتُوبوا منهم توبة صحيحة. فلا تعارض إذَنْ بين هاتين الآيتين من سورة النساء والآيات الأخرى التي تثبت قبولَ توبتهم الصحيحة في الدنيا ومغفرةَ الله لهم إذا استحقوها بالتوبة الصحيحة.

وسبب هذا الحكم على عدم التعارض والتناقض بينها: أن الآيات الّتي تنفي مغفرة الله للكافرين وقبول توبتهم تخبر عن أحوال يوم القيامة بيد أن الآيات الأخرى التي تثبت مغفرة الله للكافرين وقبول توبتهم

---

[149] المائدة، 5: 74.

[150] الخازن، لباب التأويل، 2: 66.

[151] أبو حيان محمد يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوّض، وشارك في تحقيقه: الدكتور زكريا عبد المجيد النوني، الدكتور أحمد النجولي الجمل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1413 هـ-1993 م)، 3: 545.

[152] البخاري، الجامع الصحيح، كتاب استتابة المرتدين، باب 1، رقم الحديث: 6921؛ وأخرجه مسلم في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية، رقم الحديث: 120.

[153] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، رقم الحديث: 121.

تخبر عن أحوال الحياة الدنيا. يعني: لا تعارض بين هذه الآيات من أجل اتفاق موضوعها مع اختلاف زمان هذا الموضوع ومكانه للآيات، لأن هذا يثبت عدم شرط من شروط التناقض.

وبالإجمال، يظهر مما تقدم أن الْحُكْم في توبة الكافرين والمشركين والمرتدّين نفس الحُكْم، وأسباب توهّم الاختلاف والتناقض بين الآيات المذكورة نفس الأسباب فيُدفَع إيهام التناقض والتعارض عنها بسلوك نفس المسالك. أي: بمسلك حمل المطلق على المقيّد وبذكر اتفاق الموضوع الذي تخبر عنه الآيات مع اختلاف الزمان والمكان لهذه الآيات إشارةً إلى عدم شرط من وشروطِ التناقض، وذِكْرِ أسبابِ نزول هذه الآيات، والأحاديثِ الصحيحة التي تقيّد المطلق من الآيات.

ولا يحدث اختلاف التضادّ، ولا التعارض الحقيقي ولا التناقض بين هذه الآيات من أجل هذه القاعدة: «إذا كان يُحمل أحد الخبرين في النفي والإثبات على غير ما يُحمل عليه الآخر، فإن هذا لا يُعدّ من التناقض.»[154] و«قاعدة: إنما يتناقض الخبران اللذان أحدهما نفي والآخر إثبات إذا استويا في الخبر والمُخبر عنه، وفي المتعلق بهما، وفي الزمان والمكان، وفي الحقيقة والمجاز (عند القائل به)»[155]. ويندفع التعارض المتوهم بين هذه الآيات بذكر هذه القاعدة سهلًا لأنها تشير إلى عدم تحقق شرط من شروط التناقض بين هذه الآيات التي استشكلت.

وكان الموضوع المتفق بينها: هل يتقبل الله توبة المشركين والمرتدين والكافرين إذا تابوا أم لا؟ فأما زمان هذا الموضوع ومكانه في الآيات الّتي تنفي قبول توبتهم ليس بنفس الزمان والمكان في الآيات الَّتي تثبت قبول توبتهم لأن الآيات الأولى تخبر عن أحوال يوم القيامة إن ماتوا كفّارًا ومشركين ومرتدِّين بيد أن الآيات الأخرى تخبر عن أحوالهم في الحياة الدنيا قبل حضور الموت (معاينة ملك الموت) وقبل أن يعاين الناس طلوع الشمس من مغربها، فلا منافاة إذن بين هذه الآيات من أجل عدم تحقّق شرط من شروط التعارض، أي: اتحاد الزمان والمكان بينها.

وخلاصة مسلك حمل المطلق على المقيّد لدفع إيهام التناقض عن هذه الآيات: الأحكام المطلقة في الآيات التي تنفي مغفرة الله للكفرين والمشركين والمرتدّين وقبولَ توبتِهم تُحْمَل على من ماتوا/يموتون كُفّارًا ومشركين ومرتدّين، أو على من أخّروا/يؤخرون توبتهم إلى حضور الموت أو على الذين يؤخّرونها إلى معاينة طلوع الشمس من مغربها.

الخاتمة

---

[154] خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير، 2: 698.

[155] المصدر السابق.

إن في القرآن آيات توهم ظواهرها الاختلاف والتناقض مع آيات أخرى -مِثْلَ الآيات التي توهم ظواهرها أن الله لا يتقبل توبة المشركين والكافرين والمرتدين في الحياة الدنيا- وليست الحقيقة كذلك. وذكر ابن كثير رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أشار أوّلًا إلى أن الله دعا إلى توبته فرعونَ الذي قال: **يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي.**[156] وقال أيضًا: **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ.**[157] إن هذا القول أعظم شناعةً من أقوال الكافرين الآخرين، والمشركين، والمرتدّين، ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما بناءً على ذلك: «مَن آيس عبادَ الله من التوبةِ بعد هذا فقد جَحَد كتابَ الله عزَّ وجلَّ»[158].

إذا قرأ مسلم أيَّ آية يُظَنُّ أنها متعارضة مع آية أخرى، يعلم أنها ليس تعارضًا حقيقيًّا وإن لم يعرف كيف يدفع التعارض عنها لأنه يؤمن بالقرآنِ كتاب الله الذي "**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۖ**." إن هذا ما يجب على كل مسلم أن يلاحظه ولكن معرفة الآيات التي توهم ظواهرها التعارضَ، وأسبابَ هذا التوهُّم مع طرق دفع إيهام التعارض عن هذه الآيات مهمّة من جهتين: **أوّلًا**: لنحفظ إيماننا بالقرآن كتاب الله العزيز الحكيم- **ثانيًا**: لندفع الشبهات التي يثيرها الطاعنون حول القرآن ليبعّدوا الناس عن كلام الله تعالى.وبرزت في هذه المقالة أهمية الازدياد عِلْمًا في طرق رفع التعارض المتوهّم بين الآيات التي تنفي مغفرة الله للكافرين والمشركين والمرتدّين وبين الآيات التي تثبت ذلك لهم من جهتين: **أوّلًا**: ليستقيم حوار المسلمين مع غير المسلمين لِئَلّا يضرّ بالدعوة إلى الإسلام- **ثانيًا**: لِرفْع توهُّم حاجزٍ عظيم أمام الكافرين والمشركين والمرتدّين وغيرهم يمنعهم من أن يستجيبوا لدعوة رب العالمين لما يحييهم بالتوبة إلى الله تعالى والدخول إلى الإسلام.

وتمت مقالتي بعناية الله تعالى وتقديره، أشكره لكل نعمِه عليّ ولِما منحني فُرصةَ كتابةِ هذه المقالة، وأرجو منه أن يتقبل جهدي فيها خدمةَ كتابِه المجيد خالصًا لوجهه الكريم، وأستعين به أن يجعلها نافعةً لكل من قرأها. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين!

---

[156] القصص 28: 38.

[157] النازعات 79: 24.

[158] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 5: 376.